مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 09 / العـدد: 01 (2023)، ص 899- 918

فقه التنزيل و أثره في النهوض بالأمة - مجالس التذكير أنموذجا

Quran jurisprudence effect in the nation's renaissance – reminding assemblies as a sample –

د. امحمد ربة[1*]

[1] جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة (الجزائر)، rebbamhamed@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/04 تاريخ القبول: 2023/05/05 تاريخ النشر: 2023/06/17

ملخص:

فقه التنزيل لمعاني القرآن الكريم: موضوع جليل القدْر؛ عظيم الشرف؛ كبير الأثر، اعتنى به فقهاء الإسلام والأئمة الأعلام منذ قديم الأزمان، لاسيما أهل التفسير وعلماء التأويل، حيث يربط واقع المسلمين بكتاب ربهم سبحانه وتعالى في سائر شؤون الحياة، لِيستنِيروا من خلاله ويسيروا على نهجه؛ في علاج أمراضهم واصلاح أعطابهم وبلوغ مرادهم..، فكلام الله تعالى هو غذاء الروح وقوت القلوب، ومفتاح السعادة وباب السيادة..

ويهدف البحث إلى كشف اللثام عن كبير الفائدة التي ينطوي عليها تنزيل المعاني القرآنية والعمل بالهدايات الربّانية؛ ولهذا قد بدا جليا عناية ابن باديس بهذا المبحث القرآني الجليل وتطبيقه على الواقع المعاش، وأثر ذلك في تحقيق الاصلاح الديني والاجتماعي للأمة من الجانب: العقائدي، التعبدي، والفكري.

وذلك من خلال ما سطّره هذا الإمام في تفسيره الشهير: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير.

كلمات مفتاحيّة: القرآن؛ الأمة؛ الواقع؛ المعاني، التذكير.

Abstract:

Quran jurisprudence is a significant topic with a great effect. It has been dealt with by well-known Islam scientists since ancient time, especially interpretation scientists. It links the Muslims' reality with Quran in all life concerns so that they follow it for the sake of success. Quran is the spirits and hearts 'feed. It's the passport to happiness.

This research aims at revealing the significant benefit of Quran senses and the value of conforming God's guidance. So, Ibn Badis dealt with this Quranic research and its effect on reality and with the nation religious and social reformation from belief, worshipping and intellectual sides through what this Imam outlined in his well-known interpretation "Reminding assemblies from the speech of the wisest and the all aware".

Key words: Quran, Nation, reality, senses, reminder.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إن القرآن الكريم هو دستور المسلمين في سيرهم إلى الله والدار الآخرة ومنهجهم في هذه الحياة الدنيا، فقد خوطب بهذا الكتاب العزيز الجنُّ والإنس على حدّ سواء، فوَجب الإيمان به والتصديق لأخباره وتحكيمه والتحاكم إليه، لأنه صراط الله المستقيم الذي من سار على نهجه فقد أفلح وسعد، ومن أعرض عنه فقد أذَّن على نفسه بالخسران المبين، كما قال الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)**﴾ [طه: 124].

ولهذا بدأ جمع من المفسرين وبخاصة من أهل المغرب الإسلامي، من أمثال: عبد الحميد ابن باديس الجزائري، بفسْر المعاني القرآنية وتقريبها إلى العباد قدر الإمكان، والسعي إلى تنزيلها على الوقائع والأحداث، بغية الإصلاح والإرشاد وتقويم الاعوجاج، في كل مناحي الحياة وصنوف المعاملات.

ولا شك ولا خلاف أن التنزيل القرآني على الواقع، من أجل معالجة قضاياه ومسايرة النوازل من الأهمية بمكان، لأنه لا يأتي على الأمة زمان؛ إلا وهي أحوج ما يكون في الرجوع إلى الهدايات القرآنية وارشاداته الإلهية، سيما أوقات الفتن وفشوّ الجهل بين أفرادها، ودروس العلم وآثار النبوة بين أظهرها.

وقد حازت تفاسير المغاربة عموما والجزائرية خصوصا، على نصيب طيب وحظ وافر في تناول موضوع فقه التنزيل، الذي قلّ طرق أبوابه في زمننا المعاصر والكشف عن مقاصده ومراميه، خصوصا في باب الإصلاح الديني والاجتماعي الذي تعاني منه الأمة كثيرا...

الإشكالية: وعلى ضوء ما تقدم ذكره وغيره؛ فإنه تبرز لدينا اشكالية هذا البحث كما يأتي معنا ذكره:

ما أثر فقه التنزيل في اصلاح واقع الأمة والنهوض بها من خلال مجالس التذكير لعبد الحميد الجزائري ؟

ويتفرع عنها بعض التساؤلات الفرعية الجزئية: ماذا نقصد بفقه التنزيل ؟ وأين تكمن فوائده ؟ وما حجيته وضوابطه ؟

الأهمية: فهي تنبثق مباشرة من أهمية الموضوع المبحوث فيه؛ وهو قضية النهضة بالأمة ودرء الهوان عنها في جميع المجالات: العقائدية والتعبدية والفكرية، وكذلك ينطلق من جودة التفسير المختار ؛ وهو كتاب المجالس لابن باديس.

الأهداف: ابراز الدور الفعال لفقه التنزيل في اصلاح شؤون الأمة، والكشف والبيان عن جهود ابن باديس في توظيف فقه الواقع وربطه بالقرآن الكريم.

المنهج: وقد اعتمدت في معالجة موضوع هذا البحث المهم، على منهج مركّب من: الوصفي التحليلي. وذلك من أجل بيان: مفهوم فقه التنزيل، وأهميته، وضوابطه، وكذا أثره الجميل في صناعة جيل ذو قيم عالية، ورؤية للعالمين سامية.

المنهجية: وبما أن الموضوع قائم على اشكالية وكذلك على تساؤلات تحتاج منا إلى جواب، فقد اتبعت خطة مشتملة على: مقدمة، وجانب نظري وآخر تطبيقي، وخاتمة.

مقدمة: وتشتمل على توطئة يسيرة للموضوع، وبيان أهميته وطرح إشكاليته، والأهداف الرامية إليه، ومنهج المعالجة، وأخيرا خطة البحث.

الجانب النظري: لمحة تعريفية حول فقه التنزيل. ويتضمن:

- مدخل مفاهيمي لمفردات الموضوع.
- ضوابط فقه التنزيل عند المفسرين.

الجانب التطبيقي: التنزيل القرآني وأثره في النهوض بالأمة. ويتضمن:

- عناية المغاربة بالقرآن الكريم وعلومه.
- فقه التنزيل وأثره في النهوض بالأمة من خلال مجالس التذكير.

خاتمة: وتتضمن جملة من النتائج العامة والمقترحات الهامة.

قائمة المصادر والمراجع.

2. لمحة تعريفية حول فقه التنزيل ويتضمن:

2.1 مدخل مفاهيمي لمفردات الموضوع.

2.1.1 شرح المفهوم:

2.1.1.1 التعريف اللغوي:

الفقه: الفقه: الفهم (الجوهري، 1407هـ، 1987م). والفقه، بالكسر: العلم بالشيء، والفهم له، والفطنة، وغلب على علم الدين لشرفه (يعقوب، 1426هـ، 2005م، ص 1250). تقول: فقهت الحديث، أفقهه. وكل علم بشيء فقه، ثم اختصّ به علم الشريعة، فقيل لكل عالم بها: فقيه. وافقهتك الشيء، إذا بيَّنته لك (الرازي، 1406هـ، 1986م، 703/1).

فمعنى الفقه في اللغة: العلم والفهم بالشيء، وكذلك التبيين له.

التنزيل: مصدر من فعل: (نزل) النون والزاء واللام كلمة صحيحة تدل على هبوط شيء ووقوعه. ونزل عن دابته نزولا. ونزل المطر من السماء نزولا (الرازي أ.، 1399هـ، 1979م، 417/5). وتنزّل: نزل في مهلة (يعقوب، 1426هـ، 2005م، ص 1062).

والتنزيل: ترتيب الشيء ووضعه منزلَه. (الرازي أ.، 1399هـ، 1979م، ص 417/5).

فمعنى التنزيل أو النزول في اللغة: الهبوط والوقوع على الشيء، ووضع الشيء موضعه مرتّبا. ويكون النزول أو التنزيل: من جهة العلو إلى جهة السفول.

2.1.1.2 التعريف الاصطلاحي:

انطلاقا من التعريف اللغوي للجزئين، وهما: (الفقه، والتنزيل)، يتبين لنا أن فقه التنزيل هو مصطلح مركب من مضاف ومضاف إليه، ويطلق ويراد به: تنزيل الآيات القرآنية على الواقع عند أهل التفسير، ويعرفه الضامر بقوله: "هو مقابلة الأحداث المعاصرة للمفسر بما يشابهها في كتاب الله تعالى، سواء كانت المقابلة تامة أو جزئية أو مخافة لما عليه الآية"(الضامر، 1428هـ، 2007م، ص 33).

فعبارة أو مصطلح فقه التنزيل، هو من باب الاختصار في التسمية؛ وجمع الذهن على ضبط هذا الموضوع من ناحية الاسم. وتعريفه مختصرا كالآتي:

فقه التنزيل: هو فهم النصوص القرآنية من طرف المفسر في عصره، وايقاعها مرتبة على حسب الأحداث في الواقع.

2.1.2 فضائل فقه التنزيل وحجيته.

2.1.2.1 فضائل فقه التنزيل:

لاشك أن موضوع فقه التنزيل القرآني على الواقع المعاش لدى المسلمين؛ أمر إلهيّ قبل كل شيء، وواجب شرعي ومطلب حتمي، لقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121)**﴾ [البقرة: 121]، وقوله سبحانه: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: 103].

به تستقيم الحياة وتصلح الأحوال وتنتظم أمور المعاش، فضلا عما يحصل بسببه من تحصيل الأجر والثواب، كونه من العمل بالقرآن الكريم والوقوف عند حدوده، فيفلح المؤمن بهذا الامتثال لأوامر القرآن ونواهيه يوم الحساب والجزاء على الأعمال.

ويمكن تلخيص فضائل فقه التنزيل على شكل نقاط مرتبة كما يلي:

- ايجاد الحلول الشرعية للمشاكل والأزمات في أي عصر ومصر.
- معالجة الآفات النازلة بالمسلمين في دينهم وأخلاقهم، بأفضلَ دواء وأمثل علاج.
- تحقيق الرجوع الصادق إلى القرآن الكريم والتمسك به علما وعملا.
- ارجاع الأمة إلى رحاب القرآن مكمن العزة وسر التمكين.
- اثبات عظمة كتاب الله تعالى للأمم الأخرى؛ ودعوتهم لتصديقه والإيمان به.
- ضمان سعادة الدارين للأمة الإسلامية والبشرية.
- زيادة الإيمان بكتاب الله تعالى واثبات أنه مصلح لكل زمان ومكان.
- ربط الأمة بالوحي المنزل في كل شؤونها وتصرفاتها.
- معرفة أسرار القرآن الكريم، وايضاح شمولية هداياته للبشر في سائر الأزمان.
- استنباط مقاصد القرآن الكريم، ومعرفة موضوعات آياته وسوره.
- بيان أن القرآن الكريم هو منهج حياة ودستور البشر أجمعين.
- ثراء المكتبة الإسلامية بعلم جليل جديد من علوم القرآن الكريم.
- فتح باب النظر والاجتهاد لتحقيق مصالح العباد.
- عناية المفسرين بحاضر الأمة ومستقبلها وسعيهم الحثيث للنهوض بها.
- أصالة علم التفسير وحاجة الأمة الإسلامية إليه في كل أبواب الدين ومناحي الحياة.

2.1.2.2 حجية فقه التنزيل:

من المجمع عليه عند علماء الإسلام خاتمية الرسالة المحمدية، وشمولية دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعالمين كافة، والآيات الدالة على ذلك كثيرة في كتاب الله سبحانه، من ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28)**﴾ [سبأ: 28].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [المائدة: 158].

وقوله سبحانه: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)**﴾ [الأحزاب: 40].

فإذا تقرّر هذا الأمر، فإن القرآن الكريم هو آخر الكتب المنزلة فلا كتاب بعده، فكما أن النبي خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإن القرآن خاتمة الكتب.

وعلى هذا الأساس؛ فإن تنزيل آي الكتاب وتطبيقها على الوقائع الكونية والأحداث البشرية بغضّ النظر عن الحقبة الزمنية مشروع بلا نزاع، بدليل النصوص القرآنية المذكورة آنفا، وبدليل قوله تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾ [الأنعام: 19].

جاء في تفسير الطبري: عن ابن عباس ومحمد بن كعب ﷺ في قوله: ﴿ **لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ**﴾، أن من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ، ومن بلغه فهو له نذير (الطبري، 1420هـ، 2000م، 291/11).

ومن هنا يظهر زيف الفكرة العلمانية الرائجة القائلة: إن القرآن الكريم موجّه إلى العصر الذي نزل فيه، وقاصر على الأشخاص الذين نزل في حقّهم، وهذا يعني تعطيل أحكام كتاب الله تعالى، وابعاده عن التحاكم إليه والعمل به.

إن المتأمل في نصوص الكتاب الكريم بعين التدبر، يجد أن خطابه للمؤمنين والكافرين مجرد عن المجال الزمني والحيز الوقتي، فيبقى النص على عمومه وشموله ما لم يرد دليل التخصيص، كما هو مقرر في أصول التفسير وقواعده (العك، 1406هـ، 1986م، ص 379-384)، وبالتالي فإن بطلان الكلام المذكور آنفا يغني ابطاله.. وسقوطه يغني عن اسقاطه.

وعليه فقد استنبط علماء الشريعة قاعدة قرآنية ذهبية من أهم القواعد التفسيرية، ويطلق عليها: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). يقول السعدي مبينا أهميتها: "وهذه قاعدة نافعة جدا جدًا بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها

يفوته علم كثير ويقع الغلط والارتباك، وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم" (السعدي، 1420هـ، 1999م، ص11).

فيحصل بإعمال هذه القاعدة؛ تعميم المعاني القرآنية وتنزيلها على سائر المكلَّفين في كل زمان ومكان دون استثناء. وذلك للاشتراك في علّة الحكم وتشابه أوصاف وأحوال المخاطبين، وإن كان نزولها بسبب حوادث مخصوصة زمن النبوة.

يقول ابن تيمية: "فلم يقل أحد من علماء المسلمين: إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين" (تيمية، 1414هـ، 1994م، ص 37).

وعودا على بدء، فإن من أدلة السنة على مشروعية تطبيق الآيات القرآنية على الواقع بصفة عامة دون زمن مخصوص وعصر محدّد، مارواه البخاري عن ابن مسعود - ﷺ -: " أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزلت عليه: ﴿**وَ أَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود: 114]، قال الرجل: ألِيَ هذه ؟ قال: «**لِمَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ أُمَّتِي**» "(البخاري، 1422هـ، 75/6).

وختاما أقول: إن من أوضح الأدلة على مشروعية تنزيل معاني القرآن الكريم وتطبيقها في حياة المسلم، أن خلُق النبي عليه الصلاة والسلام هو القرآن الكريم، ونحن مأمورون باتباعه والاقتداء به.

2.2 ضوابط فقه التنزيل عند المفسرين.

إن فقه التنزيل عند المفسرين كغيره من العلوم الشرعية المعروفة، يتطلَّب شروطا وضوابطَ معينة لابد من التزامها وأخذها بعين الاعتبار، وذلك تحقيقا للموضوعية وتباعدا عن سوء الاستدلال ومزالق الفهم، وهذه الشروط هي:

- سلامة المقصد.
- تحصيل العلم والتأصيل الشرعي.
- العلم بأسباب النزول.
- مراعاة السياق.
- مراعاة أحوال النزول.
- العلم بالواقع المعاصر.
- الفهم الصحيح لمعنى الآية (الضامر، 1428هـ، 2007م، 70-81).

فهذه الضوابط المذكورة تباعا، ينبغي على المفسر مراعاتها عند تنزيل معنى معين من معاني الكتاب العزيز على الواقع، وقد لخصتها من كتاب: "تنزيل الآيات لعبد العزيز الضامر"، على شكل نقاط وجيزة ليسهل على القارئ الكريم احصاؤها، وإلا في حقيقة الأمر؛ فإن ضوابط فقه التنزيل القرآني منفردة تحتاج إلى مؤلف مستقل، وذلك لدقة هذه الجزئية وخطورة اغفالها أو الجهل بها، حال تطبيق المفسر للمعاني القرآنية على حياة المسلمين وتنزيلها على واقعهم المعاش.

3. فقه التنزيل و أثره في النهوض بالأمة في ضوء مجالس التذكير.

وبعد الفراغ من الشق النظري من هذه الورقة، ننتقل مباشرة إلى الشق التطبيقي منها، أي: ذكر نماذج تطبيقية حول التنزيل القرآني، وأثره في النهوض بالأمة واصلاح واقعها، في ظلال قطوف قرآنية مقتبسة من تفسير: مجالس التذكير لعبد الحميد ابن باديس. ويتضمن مطلبين:

3.1 عناية المغاربة بالدراسات القرآنية.

3.1.1 فضل القرآن الكريم.

إن الحديث عن فضائل القرآن الكريم بحر لا ساحل له؛ بل هو أشرف موضوع وأعلاه، وأعظمه على الاطلاق وأسناه، حديث ذو شجون ومقام رفيع، كيف لا ؟ ! والأمر متعلِّق بكلام الله تعالى المنزل من فوق سبع سموات، الذي نزل به أمين السماء على أمين الأرض، ليكون منهجا ربانيا للعباد في سيرهم إلى الله والدار الآخرة، والمنعوت بصفات الجلال وخصال الكمال وآيات الجمال.

لقد أودع الله تعالى بين دفتي هذا الكتاب العظيم المبارك من الخيرات والبركات، ما لا يمكننا الإحاطة به من كل جانب والإلمام به من كل أطرافه، ولذلك فقد اعتنى العلماء قديما وحديثا ببيان هذا الجانب المهم، سواء في مقدمات تفاسيرهم أو ضمن رسائل خاصة مستقلة، وسموه: (فضائل القرآن الكريم).

حتى صار بابا مستقلا من أبواب القرآن الكريم وعلومه، وجزءا لا يستغنى عنه المفسّر في مباحثه. وكما قال القرطبي: "اعلم أن هذا الباب واسع كبير، ألف فيه العلماء كتبا كثيرة، نذكر من ذلك نكتا تدل على فضله، وما أعده الله لأهله، إذا أخلصوا الطلب لوجهه. وعملوا به" (القرطبي، 1384هـ، 1964م، 4/1).

لقد امتدح رب العالمين كتابه المعجز في آيات كثيرة بأجلّ الأوصاف، من ذلك:

وصفه بالشفاء والرحمة في قوله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)**﴾ [الإسراء: 82].

ووصفه بالنور المبين في قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174)**﴾ [النساء: 174].

ووصفه بالحبل المتين كما في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ [آل عمران: 103].

ومن أراد الاستزادة في موضوع فضائل القرآن، فما عليه إلا النظر في كتب هذا الشأن، مثل: فضائل القرآن لابن الضريس، وفضائل القرآن للفرياني، وفضائل القرآن للنسائي، وفضائل القرآن للمستغفري، وفضائل القرآن للضياء المقدسي..

وما ذكرته لا يعدو أن يكون قطرة في بحر وغيضا من فيض، لأن كتاب الله تعالى هو: المأمن عند الفزع، والمخرج عند الفتن، والعصمة عند الضلال، والعزّة عند الهوان، وهذا كله يدل على عظيم فضل القرآن ومكارمه الحسان.

3.1.2 الدراسات القرآنية عند المغاربة.

صلة بلاد المغرب الإسلامي بالدراسات القرآنية ضاربة في التاريخ غائرة عبر الزمن، فالارتباط بينهما وثيق والامتداد عريق، فقد أكرم الله سبحانه أهل المغرب على وجه الخصوص؛ وحباهم فتحا كبيرا في مجال اتقان القرآن الكريم والعناية بعلومه المختلفة، حيث اشتهر أهل المغرب بتعظيم كلام الله تعالى، والحرص على تحفيظه للصغار قبل أي علم كان، وذلك على وجه قلّ في الدنيا نظيره، وعزّ عند الناس مثيله..

ولست هنا في سياق المدح لمنطقة ما أو رفع لرقعة على حساب أخرى، وإنما هو الواقع الذي شهدت به العلماء؛ وحفظته لنا التصانيف والمؤلفات.

لقد ازدهر سوق الدرس القرآني باختلاف فنونه ومجالاته في بلاد المغرب الإسلامي منذ القدم، من: تفسير، وأحكام القرآن، وقراءات، وتوجيه معاني القراءات، واعراب القرآن، وغريب القرآن، ورسم المصحف، وبلاغة القرآن، وإعجاز القرآن، وآداب القرآن، وفضائل القرآن، والوقف والابتداء.

حيث تكاثر المتخصصون وتفنّنوا في دراسة العلوم القرآنية، وبرزوا في هذه البلاد واشتهر سيتهم وعلا ذكرهم، مما حدا بالطلاب من كل حدب وصوب، التوجه اليهم والأخذ عنهم والتعلّم على أيديهم.

ومن أشهر علماء المغاربة في مجال الدراسات القرآنية على سبيل التمثيل لا الحصر: ابن العربي وابن الفرس في أحكام القرآن، وابن عطية والقرطبي في التفسير، والقسطلاني في الوقف والابتداء، والشاطبي والداني في القراءات، والقيسي في معانيها، وأبو حيان وأبو إسحاق السفاقسي في اعراب القرآن، والخرّاز في الرسم والضبط، وبنشقرون في التجويد، وأبو جعفر الغرناطي في ترتيب سور القرآن..

لِيبقى في النهاية ما ألفه علماء المغرب في القرآن وعلومه لا يعد ولا يحصى.

ونستخلص مما سبق ذكره؛ أن لعلماء المغاربة اسهاما كبيرا وجهدا وفيرا في خدمة العلوم القرآنية، بل إن الناظر في تراجم علماء أهل المغرب، يرى حسن عنايتهم بكتاب الله تعالى تعليما وتدريسا؛ وجودة تآليفهم التي بلغت شهرتها الآفاق*.

لِيبقى مجال هذا الموضوع الهام مفتوحا للباحثين المعاصرين؛ والحاجة قائمة إليه من جانب التدوين، وذلك من أجل اماطة اللثام عن جهود علماء المغرب الإسلامي في خدمة القرآن الكريم وعلومه، التي تكاد تخفى عن الجيل المعاصر حقائُقها؛ وتندرس بينهم تدريجيا معالمها.

3.2 فقه التنزيل و أثره في النهوض بالأمة في ضوء مجالس التذكير.

3.2.1 الرؤية الباديسية للإصلاح الاجتماعي.

ذكرنا آنفا اهتمام علماء المغرب الإسلامي بالقرآن الكريم وعلومه بشكل عام، والآن ننتقل إلى فقه التنزيل على وجه التحديد، ولكن عند علماء القطر الجزائري فقط، حيث سعى كثير من مفسرِّي هذه البلاد المباركة: قدماء ومعاصرين، إلى اصلاح واقع الأمة والنهوض بها من جديد.

وفي مقدمة هؤلاء المفسرين الأعلام: عبد الحميد ابن باديس، في كتابه القيّم: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، حيث قصد إلى تطبيق أحكام الكتاب العزيز باتباع ارشاداته والاستهداء بهداياته، وتفعيل ذلك كله وتطبيقه بين أفراد أمته الجزائرية.

* وقد أفرد ابراهيم الوافي رسالة في هذا الموضوع، بعنوان: الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري.

فتجسيد الإصلاح الاجتماعي بالمعنى الباديسي: (العقدي، التعبدي، والفكري)، مطلب ضروري وطريق موصل إلى النهوض بالأمة إن شاء الله تعالى، واحلالها الدور الرّيادي الذي كانت عليه قبل الغزو الصليبي الفرنسي، من بعد ما أصابها من الوهَن طيلة عقودا طويلة، أنَّتْ لوطئته الجبال الصِّلاب؛ وشابت لِويلاته رؤوس الولدان.

وقد قمت بدراسة جملة من الشواهد الدالة على ذلك من أهم كتب التفسير الجزائرية، والقصد هو كتاب: مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، للشيخ: عبد الحميد ابن باديس الجزائري* (الزبيري، 1424هـ، 2003م، 1136/2)و (كحالة، دت، 105/5).

ومن خلال النظر والتأمل فيما سطَّره مصلح الجزائر في تفسيره، رأيت أن الرؤية الباديسية لإصلاح المجتمع الجزائري كانت ثاقبة النظر عميقة الأثر، لا سيما وقد عانى مجتمعنا من ويلات التخلُّف ردحا من الزمن طويلا، وتجرّع مرارة الجهل بكل أشكاله ابّان المرحلة الاستعمارية المظلمة.

ومن هنا سار ابن باديس بكل جد واجتهاد في: تصحيح المسار؛ وتحسين الأحوال؛ وفكّ الأغلال؛ من خلال فقه تنزيل القرآن الكريم على الواقع، وذلك باستهداف ثلاثة قضايا رئيسة، هي: العقدية، التعبدية، الفكرية.

3.2.2 فقه التنزيل وقضايا الإصلاح الباديسية.

وذلك على النحو الآتي:

3.2.2.1 القضايا العقدية:

لقد اتخذ ابن باديس من فقه التنزيل سبيلا لعلاج أمراض الاعتقاد التي كانت سائدة في بلاد الجزائر، ولبيان هذا المنهج القويم في النهوض بالأمة واصلاح عقيدتها، سأورد مسألتين من أهم مسائل الدين وأصول الاعتقاد، وذلك على النحو الآتي:

* هو عبد الحميد بن محمّد المصطفى بن مكي بن باديس، ولد: سنة 1305هـ، 1887م، وقيل غير ذلك، المفسر المعلم والمجاهد والمصلح والمربي، رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، من بدء قيامها سنة 1931م إلى وفاته، ولد في قسنطينة وأتم دراسته في الزيتونة بتونس، وكان شديد الحملات على الاستعمار ...، من أشهر مصنفاته: "تفسير القرآن الكريم" اشتغل به تدريسًا ما يفوق عقدا من الزمن، ونشر منه قسما باسم "مجالس التذكير" وله غير ذلك، توفي سنة 1359هـ، 1940م، وقيل إنه مات مسموما.

أ- تجريد التوحيد.

لقد اهتم ابن باديس بتجديد التوحيد في الأمة الجزائرية من خلال فقه التنزيل، لا سيما فيما يتعلق بإخلاص الدعاء لله عز وجل وحده لا شريك له، ونَبذ دعاء المخلوقين من المقبورين وغيرهم..، وهذا ما قرّره ابن باديس بكلام جامع مختصر: "من دعا غير الله، فقد عبد ما دعاه وهو في عبادته من الخاسرين "(الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 116).

وإن كان نزول هذه الآية في المشركين الأوائل، الذين كانوا يدْعون نفرا من الجنّ (الطبري، 1420هـ، 2000م، 471/17)، غير أن ابن باديس حمل عموم المعنى الآية وأنزله على مشركي زمانه، من عبَّاد القبور وأصحاب الأضرحة والأولياء، وذلك لتشابه أحوال الصِّنفين واجتماعهم في علة واحدة، وهي: الشرك بالله عز وجل.

بل إن مقتضى الآية وسياقها من ناحية اللغة دليل على ذلك وشاهد، وذلك لأن قوله: (**مِنْ دُونِهِ**) تفيد العموم، فيشمل سائر المعبودات من دون الله سبحانه، سواء كانوا من: الملائكة؛ أو الأنبياء؛ أو الصالحين.

وقد أعمل ابن باديس فقه التنزيل في بيان مسألة التوحيد، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (56) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (57)**﴾ [الإسراء: 56 - 57].

فبَعد بيانه لمتعلقات الآية الكريمة: معنى، وحُكما، واستنتاجا، ليصل في الأخير إلى التطبيق والتنزيل قائلا: "إذا علمت هذه الأحكام، فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال..، فليحذر قراؤنا من أن يتوجهوا بشيء من دعائهم لغير الله، وليحذروا غيرهم منه. ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين، بما استطاعوا، عسى أن يتنبه الغافل، ويتعلم الجاهل.. (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 119-120).

فهذه رسالة شديدة اللهجة من ابن باديس في التحذير من الشرك ووسائله، وقد أحسن في تطبيق المعنى القرآني الكريم الداعي الى تصحيح المعتقد عند المسلمين، والذي يدعوهم إلى اخلاص الدين لله وحده، ومن ذلك افراد الله تعالى بالدعاء.

ب- تجريد الاتباع.

لقد ركّز ابن باديس على تقرير الأصل الثاني من أصليْ قبول الأعمال من خلال فقه التنزيل، وهو تحقيق الاتباع في الأمة الجزائرية، لا سيما في حقّ من تبنّى مذهب مالك واتخذه سببا في ترك السنة النبوية، والقصد منه: هو دعوة الناس إلى الأخذ بالسنن النبوية؛ وطرد البدع المحدثة والأهواء الرَّدِية.

وتطبيق فقه التنزيل على مسألة الاتباع جليّة عند ابن باديس في تفسيره، وذلك في قوله تعالى: ﴿**لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور: 63].

حيث سعى جهده واستفرغ وسعه في استثمار دلالة هذه الآية الكريمة، وذلك في ارساء قاعدة كلية وأصل أصيل، وهو وجوب الاتباع وتحريم الابتداع، وقد كان مقتديا في ذلك بالإمام مالك قبله، حين طبّقها على أقوام متزيدين في الدين (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 338-339). وذلك لاشتراكهم - مع من نزلت فيهم - في علة الحكم، وهو الانصراف عن سنته والزهد في هديه القويم.

وهذا ملمح لطيف وتنزيل بديع من امام دار الهجرة - على ساكنها الصلاة والسلام -، مما يدل على حسن الاستنباط؛ وجميل الاعتماد.

فبَعد بيان عبد الحميد ابن باديس لمتعلقات الآية الكريمة من: معنى، وحُكم، واستنتاج وغير ذلك من المتعلَّقات، ليصل في الأخير إلى التطبيق والتنزيل قائلا: "فليتأمل المسلمون- وخصوصاً المنتسبين إلى مذهب مالك- في فقه هذا الإمام العظيم، ووقوفه عند حدود الله، وليحذروا من عاقبة المتزيدين المتغالين" (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 338-339).

قلت: صحيح أن سبب نزول هذه الآية كان في المنافقين، وذلك بسبب مخالفة أمر رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ والإعراض عنه والانصراف من غير إذنه (الرازي أ.، 1419هـ، 2657/8) و (البغوي، 1420هـ، 433/3)، غير أن ابن باديس - ومالكا قبله - قد حملا معنى هذه الآية القرآنية، وحذرا الأمة من الوقوع في شيء من الوعيد المذكور فيها سابقا، بل يرى ابن باديس أن مخالفة السنة النبوية والهدي المحمدي، هما سبب كل بلاء لحق بالمسلمين إلى اليوم (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 338).

3.2.2.2 القضايا التعبدية.

لقد اتخذ ابن باديس من فقه التنزيل القرآني الكريم، سبيلا لعلاج عديد الأمراض التعبدية التي كانت سائدة في ربوع البلاد، ولبيان هذا المنهج القويم في النهوض بالأمة واصلاح أحوالها، اقتصرت على ذكر مسألتين من أهم مسائل العبادة، حيث تتعلق الأولى بحفظ المال (التحذير من التبذير)، والثانية بحفظ العرض (الترغيب في الزواج). وذلك على النحو الآتي:

أ- حفظ المال (التحذير من التبذير):

لا شك أن التبذير أمر محرّم بنصوص الكتاب العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31)** ﴾ [الأعراف: 131]. وقوله تعالى: ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)**﴾ [الإسراء: 26- 27].

وقد نحى ابن باديس (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 218) إلى فقه التنزيل في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67)**﴾ [الفرقان: 67]، وذلك من خلال تحذير المجتمع الجزائري من آفة الإسراف وظاهرة التبذير، عملا بالوحي الرباني وتنزيلا للنهي القرآني على واقعه المعاش.

لقد صبّ ابن باديس التحذير الإلهي ووجّه النهي القرآني عن الإسراف في الإنفاق كما في آية الفرقان، وربطه بما يحصل في ربوع البلاد من مظاهر التبذير في الولائم والمآتم، وشدِّ الرّحال إلى الأحياء والأموات وتقديم النذور لهم، فاغتنم الفرصة واقتنص السياق، وأحسن كثيرا في لفت الأنظار وتذكير أولي الأبصار (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 218).

فهذا ربط بديع وتنزيل سديد من ابن باديس بين: التحذير من الإسراف والتقتير في الإنفاق والأمر بالتوسط من جهة، وبين التبذير في الولائم والمآتم؛ وتصرفات بعض شيوخ الطوائف الصوفية وأتباعهم من جهة أخرى، من اتلافٍ للمال الخاص والعام دون فائدة عائدة على الفرد أو على المجتمع (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 218).

ولا يُفهم من هذا أن ابن باديس يدعو إلى التوسط في الإنفاق على المآتم البدعية والزيارات الشركية، بل لا يرى مشروعيتها ابتداء، حيث سمى بعض هذه الوقائع شرا يُرتكب باسم الدين، كما ذكر ابن باديس أن كثيرا من الناس علّقوا آمالهم بعلماء الجمعية، في معالجة السَّرف خصوصا في المآتم.

ب- حفظ العرض (الترغيب في الزواج):

لقد حثت الشريعة الإسلامية أهل الإيمان على الزواج، وذلك لتحقيق جملة من المقاصد السامية والغايات النبيلة العالية، منها: حفظ النسل، وتكثير أهل الإسلام، واعفاف المرء عن الحرام، وتحصيل الأنس والسعادة النفسية، وغير ذلك من منافع الزواج الدينية والروحية والجسدية. كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21)**﴾ [الروم: 21].

وقد أولى ابن باديس في تفسيره أهمية بالغة لقضية الزواج، حيث دعا إلى المسارعة إليه والتشجيع عليه، أكثرَ من السعي نحو التجارة وتحصيل الأموال، أو الانقطاع للعبادة والتفرّغ لها.

وفي ظلّ موضوع الانكفاف عن الزواج بحجج واهية لاغية؛ قام بتوجيه رسائل تحذيرية لأهل زمانه من العزوف عنه أوالتزهد فيه؛ ليتّخذ من فقه التنزيل الوراد في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)**﴾ [الفرقان: 74]. طريقا موصلا للدعوة إلى هذه العبادة المباركة؛ ووسيلة ناجحة للحث عليها.

فبعد أن أبان عن شريف مكانة الزواج؛ وأنه من سنة النبي المختار وأصحابه الأطهار والصالحين الأخيار، حذَّر من التبتل والرهبنة، والاشتغال عن طلب المرأة الصالحة والذرية الطيبة بأمور الدنيا، أو بالطاعات والقربات، لأن النكاح نفسه هو من العبادة، ولهذا قال: "وقد رأى قوم من الزّهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية، فردّ عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعاً للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة" (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 237).

3.2.2.3 القضايا الفكرية.

لقد اتخذ ابن باديس من فقه التنزيل القرآني الكريم، سبيلا لعلاج عديد الأعطاب في باب المناهج الفكرية والمفاهيم الاجتماعية، والتي كانت سائدة بين أفراد الأمة والمجتمع الإسلامي، ولبيان هذا المنهج القويم في النهوض بالأمة؛ واصلاح أحوال الراعي والرعية على حدّ سواء، اقتصرت على ذكر قضيتين من أهم المسائل ذات الصلة بالموضوع، حيث تتعلق الأولى بـ: تصحيح المفاهيم، والثانية بـ: الدعوة إلى الإصلاح. وذلك على النحو الآتي:

- تصحيح المفاهيم:

من القضايا العامة التي تخص الأمة في واقعها، والتي تناولها ابن باديس وأنزل عليها آيات الكتاب الحكيم في علاجها، التحذير من الافتتان بالحضارة الغربية، أو ما يسمى بالمصطلح المعاصر: الغزو الفكري والاستعمار الثقافي، أو الانبهار بالغرب والتقليد الأعمى.

حيث بدا جليّا للقراء دقَّه لناقوس الخطر في هذه القضية المهمة، وذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20)**﴾ [الفرقان:20].

حيث عاين ابن باديس انسياق المسلمين وبُعدهم عن قيمهم الدينية الإسلامية، ولهثهم وراء الحضارة الغربية الموهومة والمزعومة (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 167).

فبعد بيانه المعنى العام للآية السابقة، وهو ارادة الله تعالى جعْل بعض العبيد فتنة لبعض في جميع الناس على العموم: فالكافر فتنة للمؤمن في الإيمان، والصحيح فتنة للمريض في الصبر، والغني فتنة للفقير في الرضا، والراعي فتنة للرعية في الطاعة، والرعية فتنة للراعي في الرعاية (الأندلسي، 1422هـ، 205/4) و (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 166).

انتقل مباشرة إلى تنزيلها وتطبيقها على الواقع المعاش، حيث قال: "كما يُفتن الفرد بالفرد، كذلك تفتن الأمة بالأمة: من ذلك أننا- معشر الأمة الإسلامية- قد فتنا بغيرنا من أمم الغرب، وفتنوا هم أيضاً بنا "(الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 167).

ويقصد بافتتان الأمة الإسلامية بالغرب: انبهار أفراد الأمة بالتقدم العمراني والعلمي الذي عليه الغرب، فيؤدي بهم ذلك إلى التقليد الأعمى؛ ومحاكاتهم في كل شيء: نافعا كان أو ضارّا.

وأما عن افتتان الغرب بالأمة الإسلامية: رؤية الغرب لما عليه المسلمون من التخلف والتقهقر، فيُخيّل إليهم أن سبب ذلك هو دين الإسلام، فينصرفون عنه وينفرون منه (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 167-168).

وهذا وجه الفتنة والامتحان بهم كما ذكر ابن باديس، أي إن الله تعالى جعل الكفار وما هم عليه من متاع الدنيا وترف الحياة؛ فتنة للمؤمنين في الصبر على الدين والثبات على الإيمان.

- الدعوة إلى الإصلاح:

لقد كانت قضية الإصلاح شغْل ابن باديس الشاغل وهمه الأكبر في مسيرته الدعويه، فحمل راية التجديد الديني في أمته بكل فخر واعتزاز، وأرسى قواعده ومبادئه في نفوس الناشئة، مستلهِما كل ذلك من مشكاة القرآن الكريم في تحقيقه على الواقع الإسلامي، سواء على الصعيد الجزائري؛ أو على صعيد الأمة المغاربية والإسلامية جمعاء.

وقد اتخذ ابن باديس من فقه التنزيل القرآني؛ وسيلة لإيضاح قاعدة كونية مطلقة؛ ذات صلة وثيقة بإصلاح الأمة وظهور أمرها، وهي: أنه ما من حكم من أحكام الله تعالى القدرية إلاّ وله سببه وعلته (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 214).

ومن ذلك أن وقوع العذاب على الأمم يكون بوجود أسبابه، وارتفاعه لا يكون إلا بانتفاء تلك الأسباب.

وقد فقه ابن باديس من خلال استعراض آيات الكتاب العزيز، أسبابَ هلاك الأمم واندثارها؛ وطرق نجاتها وبقائها، والقصد أن الله تعالى قد قضى بالهلاك على كل قرية ظالمة فاسدة؛ متمرّدة على أمر الله ورسوله والكفر بأنعم الله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**﴾ [الكهف: 59]. وقوله تعالى: ﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ [القصص: 59].

كما علّق القرآن امتناع العذاب بالإصلاح في الأرض: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ [هود: 117] (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 125).

ومن دعائم الإصلاح التي ذكرها ابن بايس: الإيمان والتقوى، فهما العلاج الوحيد لنا، لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 126) ، لقوله تعالى: ﴿**إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [يونس: 98]. وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: 96].

وقد عزَا ابن باديس هذا الإصلاح في جانبه التجسيدي على الواقع؛ إلى الروح التشاركية من خلال التعاون الفردي والجماعي، ويستهدف جهات ثلاثة: تطهير العقائد من الشرك، والأخلاق من الفساد، والأعمال من المخالفات (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 126).

وقد شابه ابن باديس وقارن بين القرى المعذَّبة الماضية، وبين الأمم الإسلامية المقصِّرة الحاضرة، وحذّر من حلول العذاب بديارنا؛ لما فينا من الظلم والفساد والكفر بأنعم الله تعالى (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 125).

وهكذا تمكّن ابن باديس عن طريق التدبر في آي الكتاب العزيز، من استعراض أسباب هلاك الأمم وتعذيب القرى السالفة، وهو الظلم وترك الإصلاح في الأرض، كما توسّل من خلال تنزيل القرآن الكريم على الواقع، من ترهيب الأمة عن مشابهة أحوال تلك الأمم الهالكة؛ فيحقّ عليها العذاب كالذين من قبلنا.

لِيختم ابن باديس حديثه عن ضرورة الإصلاح بلسان المتفاءل: "إن المطّلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء، وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج" (الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، ص 217).

4. خاتمة:

لقد تم من خلال هذا البحث المختصر والمتكون من جانب نظري وآخر تطبيقي ما يأتي:

في الشق النظري: تم تعريف مصطلح فقه التنزيل لغة واصطلاحا، مع بيان فضائل هذا العلم وأدلة حجيته، والتعريج على ضوابطه وشرائطه، وأما في الشق التطبيقي فقد بينت: عناية المغاربة بالدراسات القرآنية وفضل القرآن الكريم، والرؤية الباديسية للإصلاح الاجتماعي، مع ذكر بعض النماذج لفقه التنزيل وقضايا الإصلاح الباديسية، والتي شملت ثلاثة قضايا تتعلق بالأمة هي: العقدية والتعبدية والفكرية.

4.1 النتائج:

- غيرة ابن باديس على دين الإسلام؛ دعوة إليه ودفاعا عنه.
- اهتمام ابن باديس بالأمة الإسلامية؛ نهوضا بها وانتصارا لها.
- شمولية فقه التنزيل وكفايته في اصلاح شؤون الأمة وعلاج أمراضها.
- عناية أهل المغرب الإسلامي بفقه التنزيل للقرآن الكريم.
- ضرورة رجوع الأمة إلى التمسك بالقرآن وتحقيق العمل به.
- بعث الرؤية الباديسية حول الإصلاح الديني في أوساط الناشئة والشباب.
- تضمُّن القرآن الكريم أسبابَ سعادة البشرية في العاجل والآجل.

4.2 مقترحات:

- ادراج فقه التنزيل كمادة مستقلة ضمن برامج التعليم ومقرّرات التدريس.
- تعيّن عناية العلماء والباحثين بفقه التنزيل: تأليفا وتدريسا.
- عقد الندوات والمؤتمرات الخاصة بفقه التنزيل على الصعيدين: الإسلامي والعالمي.
- ربط الأمة الإسلامية بفقه التنزيل في جميع شؤون الحياة؛ وكافة الظروف والأحوال.
- علاج واقع الأمة والنهوض بها من جديد، في ظلال فقه التنزيل للقرآن الكريم.
- تكثيف الدراسات الأكاديمية والحرة حول دراسة منهج ابن باديس في التجديد والإصلاح.

5. قائمة المصادروالمراجع:

القرآن الكريم.

- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، 1406ه، 1986م، مجمل اللغة، بيروت : مؤسسة الرسالة.
- أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، 1399ه، 1979م، معجم مقاييس اللغة، بيروت : دار الفكر.
- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، 1420ه،2000م ، جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت : مؤسسة الرسالة.
- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، 1422ه، صحيح البخاري، بيروت : دار طوق النجاة.
- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، 1420ه، معالم التنزيل في تفسير القرآن، بيروت : دار إحياء التراث العربي.
- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، 1422ه، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت : دار الكتب العلمية.
- أبو محمد عبد الرحمن بن محمد ابن أبي حاتم الرازي، 1419ه، تفسير القرآن العظيم، السعودية :مكتبة نزار مصطفى الباز.
- الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، 1407ه،1987 م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، بيروت : دار العلم للملايين.
- الفيروزآبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، 1426ه،2005 م، القاموس المحيط، بيروت : مؤسسة الرسالة.
- تقي الدين أحمد بن تيمية، 1414ه، 1994م، مقدمة في أصول التفسير، بيروت : دار ابن حزم.

خالد عبد الرحمن العك، 1406ه، 1986م، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس : بيروت.

- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، 1384هـ، 1964م، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة :دار الكتب المصرية.
- عبد الحميد محمد بن باديس الصنهاجي، 1416هـ، 1995م، تفسير ابن باديس، بيروت : دار الكتب العلمية.
- عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، 1420هـ، 1999م، القواعد الحسان لتفسير القرآن، الرياض : مكتبة الرشد.
- عبد العزيز بن عبد الرحمن الضامر، 1428هـ،2007م، تنزيل الآيات على الواقع عند المفسرين دراسة وتطبيق، الإمارات : مطبوعات المجلس الوطني للإعلام.
- عمر رضا كحالة، دت، معجم المؤلفين، بيروت : دار إحياء التراث العربي ومكتبة المثنى.
- وليد بن أحمد الحسين الزبيري، 1424هـ،2003م، الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة، بريطانيا : مجلة الحكمة.